الفصل الخامس

فى ذكر ابتدآء الخلق

قال انّ الموحّدين فى معنى إيجاد الخلق مختلفون لانّ الله خلق الخلق لا لاجتلاب منفعةٍ ولا لدفع مَضرّة وكلّ فاعل من غير نفع ولا ضرّ فسفيهٌ غير حكيم قال المسلمون هذا إذا كان الفاعل يلحقه المنافع والمضارّ فأمّا إذا كان غنيًّا من احتراز منفعة ممتنعًا من لحوق ضرر ففير سفيه ولا عابث وقد قامت الدلالة على أنّ البارئ كذلك حكيم غير سفيه ومحال وجود العَبَث من الحكيم فلا يخلو خلقه من الحكمة وان خفى علينا وجهه لعلمنا بأنّ الحكيم لا يفعل ما هو غير حكمة واختلف ارآء الناس فى ما لاح لهم من الحكمة فى خلقه وإن كان لا يجوز القطع على شئ منه لظنّه معظم علمه عنهم فقال قوم خلق الله الخلق لجوده ولرحمته إذِ الجواد بإفاضة

الجوْد على المجود عليه يظهر جوده والقادر بإظهار المقدور يظهر قدرته وقال قوم خلقهم لينفعهم وينفع بهم يعنون لتعبر[1] المتكلفون بالمخلوق غير المكلّف وقال قوم ليأمرهم وينهاهم وقال قوم خلقهم لاستدعآء الشكر والثنآء وقيل لعلم علمَهُ أنّه يخلقهم وقال قوم لا نقول شيئًا من ذلك خلقهم لما شآء ولا علم لنا بمشيّته هذا قول من اقرّ بحدوث العالم وأنّ له مُحدثًا سابقًا له فأمّا من انكر ذلك فإنّه احتجّ للقِدَم والاهمال بأنّه لو كان للعالَم صانع او مدبّر ناظر لما كان فيه تفاوت خلق ولا تعادى سباع ولا شمول بوار ولا وقوع فساد ولا اعتراض أسقام وأوْجاع ولا هَرَم ولا موت ولا حزَن ولا فاقة وأيّة حكمة فى انشآء صورة حيوانيّة او ناميّة ثمّ فى إفنآئها ولما استوى حال المعاند والمجيب ولما فضل العالِمَ الجاهلُ بالجاه والمال والمنزلة [f° 23 r°] وهل لا[2] أُخبر الخلق ان كان له خالق على التناصف والتواصل ولِمَ خُلّى بينهم وبين التعادى والتظالم والتباغى والتهارج وهذا كلّه مضمحلّ متلاشٍ بشهادة آثار الخلق

[1] Ms. لتعبر.

[2] Ms. هلّا; corr. marg. هل.

على تفاوته واختلافه فى الظاهر من الاجتماع والافتراق والحركة والسكون والاعراض والمقارنة له بمعرفة كمال القدرة ووجوب العبرة فى خلق الأضداد وللكاره وإعطاء الخلق القوّة والقُدرة والاختيار ليستحقّوا بأعمالهم أشرف الثواب وليرتدعوا بالاعتبار عن الظلم والفساد ولو كانوا مجبورين كما يزعمون أو مجبولين على فعل واحد دون ضدّه لكانوا جمادًا مواتًا ولو كانوا على طبع واحد لما عرفوا بحواسّهم ولا وجدوا بعقولهم إلّا الشئ الواحد الذى يلايم طبعهم فلم يصلح حينئذٍ تكليف ولا وقع منهم تميز وترك إلحادهم على هذه الصورة انفع لهم وابلغ فى الحكمة ولا يفعل الله إلّا الأصلح الأحكم وأمّا فضل الجاهل العالم بالمال والجاه فالعلم أفضل من المال لأنّه السعادة اللازمة والمال من السعادة المفارقة فلو أنصف هذا الزاعم فى القضيّة لفضّل الجاهل بالمال على العالم لفضّل العالم على الجاهل بأضعاف علمه لتساوى حالَيهما وقد سُئل جعفر بن محمّد الصادق رضى الله عنه عن هذه القضيّة قال ليعلم العاقل أن ليس إليه من أمره شئ واى لعمرى هو من أدلّ دليل على مُدبّر قدير قاهر وهولآء المعطّلة اقلّ الناس عددًا

واوهنهم عُدّةً واقيلهم رأيًا وأوهاهم عزمًا وانقصهم حجّةً وأخسّهم دعوى وأدناهم منزلةً وأغربهم ذهنًا لا يظهر واحد فى أمّة وجيل إلّا فى الدهر والحين لأنّه رأى مشرذل وعقيدة مهجورة وعزم مدحول لا يبدو إلّا من قدم جاهلٍ أو معاندٍ وما أراه انتشر فى أمّة من الأمم وزمن من الأزمنة انتشاره فى زماننا هذا وأمّتنا هذه لتستّر أهله بالاسلام وتحلّيهم تحلية شرائعهم ودخولهم فى غمار أهله واحتال من احتال لهم بلطيف التمويه فى تسليم الأصول الظاهرة والمصير به إلى التأويلات الباطنة فهم يُرقّقون عن صَبُوح ويحتسون فى إرتغاء وذلك الذى حقن دماءهم وغمد سيف الحقّ عنهم نابغ فى قديم الدهر وحديثه وابدا صفحته إلّا عوجل بالاستئصال واحتث منه الأوصال واستنجز العدّة فيهم سنّة الله فى الدين خلَو من قبل ولن تجد لسنّة الله تبديلًا زعموا أنّ هذه الدنيا قديمة لم تزل[1] على ما هى عليه ولا تزال[2] كذلك من صيفةٍ بعد شتوةٍ وشتوة بعد صيفة وليل بعد نهار ونهار بعد ليل ونطفة

[1] Ms. يزل.

[2] Ms. يزال.

من إنسان وانسان من نطفة ووالد من ولد وولد من والد وبيض من طير وطير من بيض وكذلك جميع الاشيآء الحسّاسة والنامية بعضها من بعض بلاصانع ولا مدبّر لا اوّل لها ولا آخر فإنّ هذه دعوى جائزة ومقالة باطلة ولو كان هذا المُدّعى لم يزل مع أزليّة العالم بزعمه لما ساغت له دعواه ان لم يقُمْ له دليل من غيره على أزليّته فكيف وليس هو ممّن هو لم يزل ولا هو ممّن لا يزال وان اعتمد فيه خبر من كان قبله وان من أخبره لهو فى حاله وحدوثه لم يشاهد من ذلك إلّا ما شاهد من كان قبله مع معارضة الخصم له [f° 23 v°] فى الكون والحدوث لأنّ الدعاوى تصحّ بالحجج لا بالصفات وإن زعم انّه قاس ما مضى منه بما هو مُستقبَل فيما بعدُ وانّه غير مُنْقَضٍ فهذا القضآء أجود من الأوّل وأضعف مدّة بل هو نفس دعواه التى خولف فيها والمعارضة قائمة فإن زعم الحال والوقت الذى هو فيه فإنّ هذا رأىُ مَنْ قَصُر عِلْمه وسَخُفَتْ معرفته وأوجب أن يكون هو بنفسه لم يزل على ما هو عليه فى الحال والوقت لم يكن قط نطفة ولا علقة ولا مُضغة ولا جنينًا ولا رضيعًا ولا يتغيّر فيما بعدُ فيكتهل ويشيب ويهرم وتجرى عليه

الحوادث وتبديل هذه الاحوال ومعاينة هذه يضطره إلى الإقرار ويبيّن عنه وجه العناد وإن زعم أنّ حكمه فى نفسه خلاف حكم العالم قيل ولِمَ زعمتَ ذلك وهل أنت إلّا جزء من العالم بل قد شبّهت فى جميع معانيه فسُمِّيتَ العالم الأصغر وكذلك كلّ ما يعاين من الأشخاص والأنواع العُلويّة والسُفلية من الحيوان والنبات ألاترى أنّك لو عمدت الى كلّ جزء من أجزآء العالم فاختصصته باسم لحصل العالم لا شئ كما أنّك لو فرقت الجوارح والأعضآء لحصل الإنسان لا شئ فهذا يدلّك أنّ الكلّ اجتماع الجزء لا غير فإن قال لا يقوم فى الوهم ولا يتصوّر فى النفس حدوث هذا العالم ولا فنآؤه وانقضآؤه عُورض بأنّه لا يقوم فى الوهم ولا يتصوّر فى النفس قدم العالم ولا بقآؤه مع أنّ القضآء عليه بالحدث والانقضآء أقرب الى الأوهام وأشدّ ارتباطًا لنفوس لقيام الدلائل الواضحة والبراهين الشافية فإن قال كيف يمكن اعتقاد حدوث هذا العالم لا من شئ ولا فى زمان ولا مكان فإنّ هذا اشتطاط فى المطالبة وجَوْرٌ فى القضيّة لأنّه تكليف تمثيل ما لا مثل له وإحساس شئ غير محسوس وليس نعلم

كالدنيا دُنيا غيرها فتشبـه هذه بهذه وانما نحكم بحدوثها لشهادة أثر الحدوث بها والعامّى الـذى لا رأى لـه ولا نظر عنده يطلب الـدلائـل الظاهرة على الاشيآء الخفيّـة وذلـك مُحال بمنزلـة مَنْ يجب أن يَرى مـا لا يُرى وأن يَسمع مـا لا يُسمع او يسمع ما يُرى ويَرى ما هو مسموع ومن أنصف نفسه أنزل المعلومـات منـازلها واكـتفى من الموهوم بالوهم ومن المحسوس بالحسّ ومن المدلول عليه بالدلالـة وقـد لعمرى لا يتصوّر فى الوهم إحداث هذه الجواهر والأعراض لا من غير سابق ثمّ لا يتصور وجود حدث لا من مُحدث فـإذا تكافـأت الصورتان لزم المصير إلى أشبههما دلالـةً وأدناها الى الحقّ درجةً فـإنّ الدلائـل شاهدة بآثار الحدث والقـدم موهوم وقضيّـة الـدلالـة عليه من قضيّـة الوهم والدليل على أنّ العالم حادث غير قـديم كما يزعمون وأنّـه لا اوّل لـه ولا حركة إلّا وقبلها حادثـة لو كان كذلـك لما جاز وجود ما هو حاضر فى الحال من حركـة أو ليل أو نهار أو شخصٍ ما لأنّ ما لا نهايـة لـه فى وجوده وعدمه فمحال أن يوصف بأنـه قـد تناهى وانقضى حدوثـه وفُرِغ منه ولأنّ ما لا أوّل لـه فغير جائز وجود ثانيه

ولا وجود ثالثٍ ما لا ثانىَ لـه ولا وجود رابعٍ ما لا ثالثَ لـه على هذا القيـاس كما أنّ مـا لا غايـة لـه ولا نهايـة فى المستقبل [f° 24 r°] محال ان يُوصَف بـأنّـه ينقضى أو ينقطع يومًا كذلك من زعم من الحوادثَ لم يزل يحدُثُ بلاأوّل فهذا الحادث فى الحال والوقت المشاهد لا يخلو من وجود ثلثـة[1] إمّا أن يكون هو الاوّل أو بعد الاوّل ولا اوّل ولا بعد الاوّل فـإن كان هو الاوّل وان كان بعد الاوّل فقـد ثبت الاوّل وان كان لا اوّل ولا بعد الاوّل فهذا فسادة ظاهرة فكـأنّـه قـال شئ لا شئ ولو جاز وجود مـا لا اوّل لـه لجـاز وجود العشرات من غير تقـدّم الآحاد ووجود المئين من غير تقـدّم العشرات ووجود الألوف من غير تقدّم المئين[2] لأنّ بالأحد يتمّ الاثنان وبالاثنين يتم الثلاثة ألا ترى أنّ قائلًا لو قال لا تُثبِت الأرض حتّى تمطر السمآء ولا تمطر السمآء حتى تتغيمّ ولاتتغيمّ حتّى يثور البُخار ولا يثور البخار حتى تهبّ الـريـاح ولا تهبّ الـريـاح حتّى يحرّكها الفلك ولا يحركها الفلك حتى تكون كذا ويمدّ

[1] Ms. ثلثه.

[2] Ms. المائين.

فى هذا الاشتراط شيئاً قبل شيء أبدًا الى غير نهايـه ولاغايـة لم يجز وجود نبت ولا مطر ولا غيم ولا ريح لأنّـه مُعلّـق بشرط ما قبله غير جائز وجوده لأنّـه غير متناهٍ وكذلـك من زعم أنّه لم يكن حركة إلّا وقبلها حركة ولا انسان الّا وقبله انسان ولا نَبْت الّا وقبلـه نبت الى مـا لا غايـة ولا نهايـة فمحال وجود هـذا الانسان والنبت لأنّ وجوده كان مُعلّقًـا بشرائط لا أوّلها وما لا غايـة لـه لا يُوجد ولا يُعلم ولا يُوهم وكذلك لو قال قائل لا أدخلُ هذه الدار حتّى يدخلها زيد ولا يدخل زيد حتّى يدخل عمرو ولا يدخلها عمرو حتى يدخلها فلان ثم كـذلـك الى غير غايـة لم يجز دخول زيد ولا غيره أبدًا وكـذلـك لو قـال لا آكل تفّاحًا حتى آكل قبلها تفّاحةً لم يصحّ لـه اكل تفـاحة ابـدًا لأنّـه كلّما ضرب يـده الى تفّاحة يأكلها منعه شرط أكل تفاحة قبلها، ومن الـدليل على حدث العالم أو أنّ لـه أوّلًا انّا لو توهّمنا عند كلّ حركـة مضَتْ من حركات الجسم حدوث حَدَثٍ او ظهور شخص لكان ذلـك اجسامًـا حاضرةً يحضرها العَدَدُ ويـأتى عليها الحسابُ وكذلـك لو توهّمنا هذا العالم حيًّـا عالمًا لجاز أن يُعدّ حركاتـه

وسكناتـه فيكون ذلـك عددًا قـائمًا معروفًـا لمبلغ وما لـه مبلغ وأتى الحسابُ عليه فمتناهٍ وكلّ متناهٍ لـه أوّل وإنْ لم يتناهَ ومن الدليل على حدث العالم وأنّ لـه اوّلًا أن ما مضى من حركات الفلك لا يخلو من أن يكون مثل سكناتها متساويـةً أو اكثر منها أو أقـلّ فـإن كانت مثلها فـالمثل كالنصف وما لـه نصف فمتناهٍ والأكثر والأقـلّ تدلّ الكثرة على تضاعُف أجزآء الأكثر على الأقـلّ فـاذا ثبت تقـدُّم احدى الحركات على الاخرى وما لـه تقدّم فمتناهٍ ولـه أوّل وهذا من الحجج الواضحة التى يفهمها كلّ سامع وللموحّدين فى هذا البـاب من دقـائق النظر بما ألهمهم اللّـه من توفيقـه ما لا يظهر عليها إلّا اللقن الفَطِنُ ولها موضعها من كتابـه فـإن قيل أليس الحوادث عندكم فى المتسقبل لا تزال الى الآخر وإن كان لها اوّل يريدون قول أهل التوحيد ببقآء الآخرة على الأبد فما أنكرتم أن مـا مضى من الحوادث لا أوّل لها وان كان لها آخر قيـل إنّا لا نزعم أنّ مـا لـه أوّل لا يجوز ان يكون لـه آخر وانّ الحوادث غير متناهية [ل ٢١٧ أ] ولكنّا نقول أنّ الحوادث لا يزال يحدُثُ منها حادثٌ بعد حادثٍ لا إلى غايـة ولا يخرج كلّها إلى

الوجود حتى يُرى موجودًا لم يبقَ منه شئ لم يوجد وليس أوّل الشئ بموقوف على صحّة وقوع آخره كما أنّ آخره موقوف على صحّة وقوع أوّله لأنّه يستحيل وقوع آخر لا أوّل له ولا يستحيل وقوع آخر بعد آخر أبدًا كما يستحيل وقوع فعل لا من فاعل متقدّم ثمّ لا يجب وجود الفاعل بعد فعله باقيًا أبدًا أو كما أنّ الأعداد مفتقرة أبدًا الى أوّل تنشؤ منه وتبتدئ ثمّ لم يجب وجود تناهيها لتناهى أوّلها ومن الفرق بين المستقبل والمستدبر أنّه يجوز وجود ما لا يزال يتحرّك ولا يجوز وجود ما لم يزل يتحرّك كما أنّه يجوز وجود من لا يزال يعتذر من ذنب ولا يجوز وجود من لم يزل معتذرًا لأنّ الاعتذارات لا بُدّ لها من أوّل وقد يجوز أن يكون لا آخر لها كذلك الأفعال لا بُدّ أنّ لها اوّلًا ولا يجب أن يكون لها آخر ومن هاهنا التزم بعض الموحّدين بأنّ الحوادث لها آخر آخر العلة الحدث وإن زعم ان هذا العالم وما فيه من فعل الطبائع وما أوجبته ذواتها فالطبائع مركّبة من البسائط والتركيب عَرَض وهو دلالة الحَدَث فالطبائع إذًا مُحدثة ثمّ هى جماد وموات كالحجر والشجر ثمّ هى مسخّرة مقهورة بدلالة أنّ من شأنها

التنافر والتضادّ فلمّا رأيناها متواطئة متوافقة علمنا أنّه بقهر قاهر وضبطضابط ثمّ هى غير عالمة ولا مميّزة واذا كان هذا هكذا استحال وجود هذه الصَنْعَة المحكمة المتقنة العجيبة البديعة من مُسخّر غير عالم وليس تُنكر فعل الطبائع وتأثيراتها فى المطبوعات من الحرّ والبرد فى الفصول والارباع لأنّ الله تعالى وضعها على ذلك وركّب فيها تلك القوّة وسخّرها لما أراد أن يصرفها عليه وجعلها سبباً لتلك المُسبَّبات ومتى شاء سلبها تلك القوّة وأبطل فعلها كما جعل الطعام مُشبعًا والماء مرويًا وكثير من الناس يأتون القول بما أطلقناه تحرّزًا لمذهبهم وان يصحّ فعل من حىّ قادر فأمّا الاختيار والتدبير فغير جائز الّا من قادر حكيم وكذلك على من يزعم أنّ هذا العالم وما فيه من فعل الفلك والنجوم وغيرها فإن قيل اذا لم تَرُوا حيًّا قادرًا فعل انسانًا وصورةً وركّب فيه العقل والقوّة والسمع والبصر ثم قضيتم بأن فى الغائب حيًّا قادرًا يفعل ذلك ما انكرتم أن يكون الطبائع تصوّر مثل هذا الانسان وإن لم تروا مثل هذا فى الشاهد قيل وما سوآ لأنّا وإن لم نشاهد حيًّا قادرًا فعل انسانًا فقد شاهدنا

حياً قادراً فعل شيئاً وأبدعه فدلنا انه لا يجوز فعل فى الغائب الّا من حيّ وليست الطبائع بحيّة ولا قادرة فإن قيل أليس النار تُحرق والماء يرطّب قيل فقد يقولون فلان يحرق ويبرّد ويضيفون الفعل الى المختار الحيّ والموات المضطرّ ولو كانت الطبائع بذاتها لما جاز عليها الاتّفاق مع تضادّها فإن قيل شئ تعلمونه خالياً من الطبائع أو غير متولّد منها قيل الطباع نفسها متولّدة منها وأكثر القدماء على أنّ الأفلاك ليست من جنس الطبائع وهل يصحّ القول بأنّ الحركة والسكون والصوت والعجز والقدرة [f° 25 r°] والعلم والجهل والحبّ والبغض والألم واللذّة والكراهة والإرادة وغير ذلك من الأضداد والأشكال من الطبائع أو أنّها ليست بشئ لخروجها من أنواع الطبائع وأمّا احتجاجهم بالاستحالة فذلك محال الا بمحيل[1] لانه لو جاز أن يستحيل الشئ بنفسه لجاز ان يتلاشى بنفسه ولو جاز ان يتلاشى بنفسه لجاز أن يتركّب ويخرج إلى الوجود من العدم وهو عدم فلمّا لم يجز هذا لم يجز ذاك وبالله التوفيق، ومن الدليل على حدث العالم أنه لا يخلو

[1] Note marginale : كذا فى الأص.

من أحد الامرَيْن إمّا أن قـد كان وإمّا أن لم يكن فكان فـإن كان قد كان فهذه الحوادث المقارنـة لـه شاهدة بـأنّـه ما كان فـدلّ أنّـه لم يكن فكان ثمّ لم يخلُ هذا من أحد الامرَيْن إمّا أنّـه كان بنفسه وإمّا أنّـه كان بمكوّن غيره فـإن كان بنفسه فمحال أن يكوّن العدم وجودًا لعجز الكائن عن تكوين مثله فكيف يقدر على تكوين ذاتـه وهى معدومٌ بقى الوجه الآخر وهو أنّـه كوّنـه مُكوّنٌ ومن الـدليل على حدث العالم أنّـه لا يخلو أن يكون قـديمًا أو حادثًا أو قـديمًا حادثًا أو لا قديمًا ولا حادثًا فـاستحال القول بـأنّـه لا قديم ولا حادث لمشاهدتنـا إيّاه فـاستحال أن يكون قـديمًا حادثًا لاستحالـة اجتماع الضدّين بقى القول بالقديم والحدث والدعوى يتساوى فيه لأنّـه ليس قول من زعم أنّ العلم كان أولى من قول من زعم بـأنّـه لم يكن ولا جواب من قـال لِمَ لَمْ يكن بـأسعد من قـولِ مَنْ قـال لِمَ كان فنظرنـاه فـإذا دلائـل الحدث يشهد بما لا يشهد دلائـلِ القدم ومتى أراد المُلحد ان يعارضك فى قولـك بـالقديم فطالِبْه بصفات القديم فـإن أعطاك فقد أقرّ بالمعنى وبقى الخلاف فى التسمية وهذه مناظرة

جرَتْ بين الموحّد والملحد من أوضح المسائل وأنفعها لا بُدّ لكلّ مُسلم من تحفّظها ، إن سأل سائل فقال ما الدليل على حدث العالم قيل الدليل على حدثه أنّه جواهر وأعراض والجواهر لا تخلو من ان تكون مجتمعة أو متفرّقة أو ساكنة أو متحرّكة إلّا فى حال واحدة ولن يجتمع المجتمع بالاجتماع ولا يفترق المفترق بالافتراق وكذلك المتحرّك والساكن والاجتماع والافتراق والحركة محدثة وهو إذا كان كذلك ولم تخلُ الجواهر منها فهى محدثة لأنّ ما لم يسبق الحوادث ولم يتقدمها فحادث مثلها مثال ذلك أنّ فلانًا لو قال أنّ عمرًوا لم يوجد قطّ فى هذه الدار إلّا وزيد معه ثم قال وإنّما وجد فيها زيد أمس فوجب أنّ عمرًوا انّما أوجد فيها أمس فإن قيل ليس قد وجدتم الباقى الذى ليس بمنتقض لا يخلو ممّا لا يبقى وينقضى ولا يوجد بعده متعريًا منه فما أنكرتم أنّ القديم الذى لم يزل لا يخلو من حادث ولا يوجد سابقًا له متعرّيا منه قيل المعارضة فاسدة من قبل أنّه ليس ممّا لا يبقى وينقضى عروضًا للحدث او المحدَث وانّما عروض ذلك لم يبقَ وانقضى وذلك أنّ قولك لا يبقى

وينقضى الحالة على وقت يأتى به يستحقّ الحكم بأنّه مُنقضٍ غير باقٍ فلم يكن منكرًا لان يقارن الباقى حتّى لا يخلو منه اذ لم يُسبَق الوصف المضادّ لوصفه وقولك قد حدث حكم قد وجب له فى وقته لا ينتظر وجوبه فى وقت فاستحال أن يقارن القديم حتّى لا يكون [f° 25 v°] القديم سابقًا له فإن قيل فاوجبوا أن يكون الباقى متغرّبًا ممن لم يبقَ وانقضى كما أوجبتم أن يكون القديم سابقًا للمحدثات موجودًا قبلها قيل ذلك يفعل وهو الواجب كما أنّه سابق للحوادث فكذلك يجب أن يكون باقيًا متأخّرًا عنها ومتى ما لم يكن كذلك لم يكن باقيًا كما أنّه لو لم يسبقها لم يكن قديمًا فإن قال اذا زعمتم أنّ المقارن للحوادث حوادث فما ينكرون أن يكون المقارن للحوادث أمس حادثًا أمس. قيل لأنّا نقول أنّ الذى يقارن للحوادث حادث بالإطلاق ولكن نقول ما لم يسبقها فحادث مثلها والجسم فإن قارن الحوادث أمس كان موجودًا قبله فلذلك لم يجب أنْ يكون حادثًا معه وهذه يؤكد ما قلنا له كما وجب ان يكون ما لم يسبق الحادث أمس حادثًا أمس فكذلك يجب أن يكون ما لم يسبق الحوادث

بإطلاق حادثًا بالإطلاق فإن قيل أليس لم نشاهد والاجسام مقارنة لحوادث إلّا وقد كانت موجودة قبلها مقارنة لحوادث غيرها فهلّا زعمتم أنّ ذلك سبيلها وأنّها لم تزل كذلك قبل هذا غير واجب لانّا وإن كُنّا حكمنا بأنّ الأجسام التى شاهدناها كانت متقدّمة للحوادث المقارنة لها مقارنة لغيرها فلم نحكم بذلك من طريق الوجوب ولا لأنّ الجسم انّما كان جسمًا موجودًا لأنّه لا بُدّ من أن يكون متقدمًا للحوادث المقارنة لها مقارنًا لغيره لأنّ هذا حدّ[1] الجسم وحقيقته بل إنّما حكمنا بذلك لأنّا لم نشاهد جسمًا حدث فى وقت مشاهدتنا له ولأنّه صحّ عندنا بالخبر والدليل أنّ هذه الأجسام التى شاهدناها قد كانت موجودة قبل مشاهدتنا لها وصحّ ان الجسم لا يخلو من حادث ولو أنّا شاهدنا جسمًا فى وقت لم نشاهده قبله ثمّ لم يَقُمْ لنا دليل على أنّه كان موجودًا قبل تلك الحال ولا خبر صادق بذلك لما حكمنا بأنّه قد كان موجودًا قبل الحوادث المقارنة له مقارنًا لغيرها بل كنّا نخبر[2] ذلك ونخبر[3] ان لا يكون سبق ما

[1] Ms. احد. [2] Ms. يخبر. [3] Ms. يخبر.

هو موجود معه منها . فإن قيل ولِمَ جوّزتم هذا وهلّا قضيتم على كلّ جسم غاب أو حضر وردّ فيه خبرًا لم يردّ قام على تقدّمه دليل أو لم يقُمْ بمثل[1] ما شاهدتم عليه هذه الأجسام وقضيتم بها عليها من تقدّمها الحوادث الموجودة منها ومقارنتها[2] لغيرها وإلّا فكيف تزعمون[3] انكم تقضون بالشاهد على الغائب قيل ليس القضايا بالشاهد على الغائب على ما ظننتموه لأنّه ليس يجب اذا شاهدنا جسمًا على صفة من الصفات أن تقضى كلّ جسم غاب عنّا كذلك انّما يجب اذا شاهدناه على صفة ما أن يُنظر هل هو عليها من جهة الوجوب الذى هو حدّه وحقيقته أم لا فإن كان كذلك قضينا على كلّ جسم غاب عنّا بحكمه وإلّا فلا كما قلتم أنّ لا جسم فى الشاهد إلّا مركّبًا من الطبائع الأربع ولا مركّبًا من الطبائع إلّا جسما ثم قلتم بأن الافلاك من طبيعة خامسة ولم يشاهدوا ذلك فكذلك إذا لم نر إنسانًا إلّا أبيض لم يجب القضاء بأنّ كلّ إنسان

[1] Ms. بمثل.

[2] Ms. مقاربتها.

[3] Ms. يزعمون.

أبيض أو لم نَرَ رُمّانًا إلّا حلوًا لم يلزم أن لا يكون رُمّان إلّا حُلْوٌ وكذلك اذا لم نَرَ جسمًا مقارنًا لحادث إلّا وقد كان عندنا متقدّمًا له مقارنًا لحادث غيره فلم يكن جسمًا لأنّه كذلك ولا ذلك حدّه بل حدّه أن يكون طويلًا عريضا عميقًا فلمّا لم يكن جسمًا لانّه يسبق الحوادث فيوُجد مع غيرها لم يجب أن يكون ذلك [f° 26 r°] حال كلّ جسم فى كلّ وقت وهذا ايضًا جواب قولهم إذا لم يَروْا أرْضًا إلّا ومِن ورائها أرض ولا بيضة إلّا من دجاجة ولا دجاجة إلّا من بيضة فكيف قضيتم بخلاف ما شاهدتم فيقال ليس حدّ البيضة أنْ تكون من الدجاجة ولا حدّ الدجاجة ان تكون من البيضة وانّما الدلائل قامت على حدثها فإن قال ولِمَ زعمتم ان الجواهر لا تخلو من ان تكون مجتمعة او متفرّقة قيل هذا من أوائل العلوم التى تُعرف بالبديهة ولا يعترض عليها بالشبه فإن قال ما الدليل على المجتمع اجتماعًا به كان مجتمعًا وللمفترق افتراقًا دونَ أن يكونِ مفترقًا ومجتمعًا بنفسه قيل لو كان مجتمعًا بنفسه لما جاز وجوده مفترقًا ما دام نفسه موجودة وكذلك المفترق فدلّ أنّ المجتمع مجتمع باجتماع وكذلك

الافتراق ، فإن قيل وما الدليل على الاجتماع والافتراق مُحدَثان قيل الدليل على ذلك أنّا نقصد الجسم المجتمع مفترقة فيُوجد فيه افتراق فلا يخلو ذلك الافتراق من أن كان موجودًا فيه قبل ذلك أو لم يكن فحدث فان كان موجودًا فيه فقد كان مجتمعًا مفترقًا وهذا محال فثبت انه حدث عند الافتراق وبطل أن يكون الاجتماع والافتراق كامنين فى الجسم فإن قال ما انكرتم أن يكون الاجتماعات والافتراقات لا نهاية لها وأنّه لا اجتماع إلّا وقبله اجتماع ولا افتراق إلّا وقبله افتراق قيل هذا فاسد لأنّه لو كان كذلك لما جاز أن يوجد واحدٌ منهما كما أنّ قاصدًا لو قصد إلى جماعة فقال لا يدخُلنّ هذا البيت أحدٌ منكم حتّى يدخله قبله آخر ما جاز أن يوجد واحدٌ منهم فى ذلك البيت ولو وجد كان فى ذلك انتقاض الشرط فإن قيل فما تنكرون أن يكون الاجتماع والافتراق خمسين قيل لو كانا كذلك لم يخلُ من أن يكونا مجتمعَيْن أو مفترقَيْن باجتماع وافتراق هما هما أو غيرهما فان كانا مجتمعين باجتماع هو هما استحال وجود الافتراق فيهما ما دامت أعيانهما قائمةً وان كانا مجتمعين باجتماع هو غيرهما

احتاج ذلك الاجتماع إلى اجتماع الى ما لا نهاية له ولا غاية وكلّ ما لا نهاية له ولا غاية فغير جائز وجود ما فى الحال منه وهذه مسئلة جارية منذ قديم الزمان ولقد رأيتُ اهل النظر يقحّمون أمرها ويرفعون من شأنها ووجدتها فى عِدّة كتب بألفاظ مختلفة فلم أجدها أكمل وأتمّ من قول ابى القاسم الكعبى فى كتاب أوائل الادلّة فأثبتُ بها على وجهها وقد ثبت حدث العالم كما ترى فيجب أن يُنظر أأحدث جملةً واحدة وضربة واحدة أم شيئًا بعد شىء لأنّ ذلك كلّه مجوز فى العقل فإن اوجد كما هو فابتداؤه حدوثه وإن اوجد منه شئ بعد شئ فابتداؤه ما أوجد منه وليس ذلك الى العقل فيُعتمد ولكن سبيله السمع والخبر والناس مختلفون فيه القدمآء ومَنْ بعدهم من أهل الكتاب والمسلمون وانا ذاكر من ذلك ما رُوى ومُرجّح ما وافق الحقّ إن شاء اللّه عزّ وجلّ،

القول فى ابتداء الخلق قرأت فى كتاب منسوب الى رجل من القدمآء يقال له افلوطرخُس[1] ذكر فيه اختلاف

[1] Ms. افلوطوخُس.

مقالات الفلاسفة ووسمه بكتاب ما يرضاه الفلاسفة من الأرآء الطبيعيّة حُكى عن تاليس الملطى[1] أنّه كان يرى مبدأ الموجودات المآء منه بدأ وإليه يحلّ وإنّما دعاه الى توهّم [fo 26 vo] هذا الرأى أنّه وجد جميعَ الحيوان من الجوهر الرَطْب الذى هو المنىّ فأوجب أن يكون مبدأ جميع الاشيآء من الرطوبة ومتى ما عدمت الرطوبة جفّت وبطلت وحُكى انّ فيثاغورس من أهل شاميا وهو أوّل ما سمّى الفلسفة بهذا الاسم وتاليس أوّل من ابتدأ الفلسفة أنّه كان يرى المبادى هى الأعداد المتعادلات وكان يسمّيها تأليفات وهندسيّات ويسمّى من جملة ذلك اسطقسات ويقول الواحدة والثانية لا حدّ لهما فى المبادى ويرى أنّ أحد هذه المبادى هى العلّة الفاعلة الخاصّة[2] وهى اللّه عزّ وجلّ والثانى العقل والثالث العنصر وهو الجوهر القابل للانتقال وعنه كان العالم المدرك بحسّ البصر وأنّ طبيعة العدد تنتهى[3] الى العشرة واذا بلغها

[1] Ms. المطلىّ.

[2] Indication marginale: فى الاصل الخاصه.

[3] Ms. ينتهى.

رجع الى الواحد وأنّ العشرة بالقوّة فى الأربعة وذلك اذا اجتمعت الأعدادُ من الواحد الى الاربعة استكملت عدد العشرة وقد ذكر ابن رزام هذا الفصل فى كتاب النقض على الباطنيّة قال افلوطرخس وكذلك كان الفيثاغوريون[1] يقولون فى الاربعة قسمًا عظيمًا ويأتون فى ذلك بشهادة الشِعْر إذْ يقولون لا وحقّ الرباعية التى تدبر أنفسنا التى هى أصلٌ لكلّ طبيعة التى تسيل دائمًا كذلك النفس التى فينا مركّبة من أربعة اشياء وهى العقل والعلم والرأى والحواسّ ومنها تكون كلّ صناعة وكل مِهْنَة وبها كنّا نحس أنفسنا فالعقل هو الواحدة وذلك أنّ العقل انّما يجرى وحده وامّا الثانية التى ليست بمحمودة فالعلم وذلك ان كلّ برهان وكلّ اقناع فمنه وأمّا الثالثة فالراى لأنّ الراى لجماعة والرابعة الحواسّ وحُكى عن برافليطس انّه كان يرى مبدأ كلّ شىء النار واليها انتهاؤها وإذا انطفأت النار يشكّل به العالم واوّل ذلك أنّ الغليظ منه إذا تكاثف واجتمع بعضه الى بعض صار أرضًا واذا تحلّلت الارض وتفرّقت أجزاؤها بالنار صارت ماءً والنار يحلّل الأجسام ويثيرها وحُكى عن

[1] Ms. الفوياعوريُون.

انمامس انـه كان يرى الهوآء أوّل الموجودات منه كان الكلّ وإليه يحلّ الموجودات مثل النَفس التى فينا وانّ الهوآء هو الذى يحفظ فينا الروح والهوآء يُمسكان العالم كلّه والروح والهوآء يقالان جميعًا لأنّ على معنى واحد قولًا متواطئًا وحُكى عن فيثاغورس[1] أنّـه كان يرى أنّ مبداء الموجودات هو المتشابـه الأجزآء وأن الكائنات يكون بالغذآء الـذى تغتذى بـه ومن هذه الكائنات يكون معنى المتشابـه الأجزآء وعنده أن الاشياء[2] يـدرك بالعقل لا بالحسّ وهى أجزآء الغذآء وانما سمّيت متشابه الأجزآء من أجل أنّ هذه الأعضآء المكوّنـة من الغذآء متشابهة بعضها يشبـه بعضًا فسمّيت متشابهـة الأجزآء وجعلها مبـادى الموجودات وصيّر المتشابه الأجزآء عنصرًا وحُكى عن ارسلاوس أنّـه يرى مبدأ العالم ما لانهايـة له وقـد يعترض فيه التكاثف والتخلخل فمنه ما يصير مآء ومنه يصير نارًا وحُكى عن انقورس أنّـه كان يرى الموجودات أجسامًـا مدركة عقولًا لا خلآء فيها ولاكون سرمديّـة غير فـاسدة لا يحتمل التكسُّر والتهشّم

[1] Ms. انفساغورس.

[2] Ms. الاسيآء.

ولا يعترض فى أجزائها خلاف ولا استحالة وهى مدركة بالعقل لا بالحواسّ وهى لا يتجزّأ وليس معنى قوله لا يتجزّأ أنّها فى غاية الصغر لكن لا تقبل الانفعال والاستحالة وحُكى عن اثادقليس أنّه [f° 27 r°] لا يرى الاسطقسات الأربع التى هى الماء والنار والهوآء والأرض وأنّ المبدأ مبدآن[1] وهما المحبّة والغلبة واحدهما يفعل الإيجاد والآخر يفعل التفرقة وحُكى عن سُقراط بن سقرنقس وافلاطون بن آرسطو الإلاهىّ أنّهما يريان المبادئ ثلاثة[2] الله والعنصر والصورة زعم المفسّرون أنّ معنى قولهم الله هو العقل العالم ومعنى العنصر هو الموضوع الاوّل للكون والفساد ومعنى الصورة جوهر لا جسم فى التخييلات وحُكى عن ارسطاطاليس بن توماجس صاحب المنطق أنّه يرى المبادئ الصورة والعنصر والعدم والاسطقسات الأربع وجسم خامس هو الأمر غير المستحيل وحُكى عن دنوهرماوس أنّه يرى المبادئ هى الله تعالى وهى العلة الفاعلة والعنصر المنفعل والاسطقسات الأربع فهذا جملة ما حكاه

[1] Ms. مبديان

[2] Ms. ثلاثة

افلوطرخس[1] من أقاويل الفلاسفة فى المبادئ وزعم ايوب الرهاوى فى كتاب التفسير أنّ المبادئ هى العناصر المفردة يعنى الحرّ والبرد والبلّة واليُبْس فكُوِّنت النارُ من تركيب الحرّ مع اليبس وكُوِّن الهوآء من تركيب البرد مع البلّة وكُوِّن المآء من تركيب البرد مع البلّة وكُوِّنت الأرض من تركيب البرد مع اليبس فصارت هذه العناصر المركّبة ثم كُوِّن من تركيب هذه العناصر المركّبة الحيوانُ والنباتُ،

ذكر ما حكى اهل الاسلام عنهم، حكى زُرقان فى كتاب المقالات أنّ ارسطاطاليس قال بهيولى قديم وقوة معه لم يزل وجوهر قابل للأعراض وأنّ الهيولى حرّك القوّة فحدث البرد ثم حرّكها فحدث الحرّ ثم قبلهما الجوهر قال وشبّه إحداثَ[2] الهيولى الحركة بإحداث الانسان الفعل بعد أن كان غير فاعل له والفعل عَرَض وهو غير الانسان فكذلك الهيولى أحدث اعراضًا هى غيره ولا يقال كيف احدثها كما لا يقال كيف حدثت هذه الحركة من الانسان وحُكى [عن] جالينوس أنّه قال

[1] Ms. افلوطوخس.

[2] Ms. باحداث.

بأربع طبائع لم ينفكّ العالم منها قال وقال سائر الفلاسفة بأربع طبائع وخامس معها خلافها لولا هو لما كان للطبائع ائتلاف على تضادّها قال وقال هرمس[1] بمثل مقالة هولآء فاثبت العالم ساكنًا ثم تحرّك والحركة معنًى وهو زوال وانتقال والسكون ليس بفعل قال وقال بلعم بن باعورآء العالم قديم وله مدبّر يدبّره وهو خلافه من جميع المعانى واثبت الحركات فقال انّ الحركة الأولى هى الثانية معاودة لأنّ من قوله أنّ الحركة مع اصل العالم والعالم قديم عنده قال وقال أصحاب الاصطرلاب بمثل مقالة بلعم إلّا أنّهم زعموا أنّ العالم لم يزل متحركًا بحركات لا نهاية لها وأنكروا أن يكون الحركة لها أوّلٌ وآخر لانّها ليست بمحدثة قال وقال أصحاب الجُثّة أن العالم لم يزل مصوّرًا قديمًا جُثّةً مُصْمتةً فانقلعت الجُثّة وكان الخلق كامنًا فيها فظهر على نحو ما يظهر فى النطفة والبيضة والنواة قال وقال أصحاب الجوهرة أنّ العالم جوهرة قديمة وأحديّة الذات وانما اختلفت على قدر التقآء[2] الجوهرة وحركاتها فإذا كانا جزءَيْن كانا حرًّا

[1] Ms. هومس.

[2] Ms. التقآء.

وإذا كان ثلثة أجزآء صار بردًا واذا كانت اربعة صارت رطوبة وزعم أنّ حركة قبل حركة إلى ما نهاية وقد جمع الناشى مذاهب هولآء كلّهم بلفظة واحدة فقال هم أربع طبقات فطبقة قالت [f° 27 v°] بقِدَم الطينة وحَدَث الصبغة وطبقة قالت بحدث الطينة والصبغة وطبقة شكّت فلم تدرِ أقديمة هى أم حديثة لتكافئ الأدلّة عندها وقد قال جالينوس وما علىّ أنْ لم أدرِ أقديمة هى أم حديثة وما حاجتى الى ذلك فى صناعة الطبّ ،

ذكر مقالات الثنويّة والحرّانيّة أصل اعتقاد هولآء فى الجملة أنّ المبدأ شيئان اثنان نور وظلمة وأنّ النور كان فى أعلى العُلو وانّ الظلمة كانت أسفل السُفْل نورًا خالصًا وظلمةً خالصةً غير مماسّين على مثال الظلّ والشمس فامتزجا فكان من امتزاجها هذا العالم بما فيه هذا الذى يجمع أصل عقائدهم ثم اختلفوا بعد ذلك فزعم ابن ديصان ان النور خالق الخير والظلمة خالقة الشرّ بعد قوله بأنّ النور حىّ حسّاس والظلمة موات فكيف يصحّ الفعل من الموات ولما رأى من فنون ما لحق المانويّة والديصانيّة من التناقض والفساد أحدث مذهبا زعم أنّ الكونين النورىّ والظلامىّ قديمان ومعهما شئ

قديم ثالث لم يزل خلافها وخارجاً عن خارجها وهو الذى حمل الكونين على المشابكة والامتزاج ولولا ذلك المُعدِّلُ بينهما لما كان من جوهرهما إلّا التباين والتنافر وزعم كنّان أنّ أصل القديم ثلاثة اشياء الارض والماء والنار غير أنّ المدبّر لها اثنان خير وشرّ ، وامّا الحرّانيّة فمختلف عندهم فى الحكاية زعم احمد ابن الطيّب فى رسالة له يذكر فيها مذاهبهم أنّ القوم مُجمعون على أنّ للعالم علّة لم يزل ويقولون المدبّرات سبع واثناعشر ويقولون فى الهيولى والعدم والصورة والزمان والمكان والحركة والقوّة بقول ارسطاطاليس فى كتاب سمع الكيان وزعم زرقان أنّهم يقولون مثل قول المانيّة وقال بعضم أنّ مذهب الحرّانيّة ناموس مذهب الفلاسفة وما لم يكن يجسر أحدٌ أنْ يُظهر خلافهم ، وأمّا المجوس فأصناف كثيرة ولهم هوس عظيم وترّهات متجاوزة الحدّ والمقدار لا يكاد يوقف عليها فبعضهم يقول بقول الثنويّة وبعضهم على مذهب الحرّانيّة والخُرَّميَّةُ جنسٌ منهم يتستّرون بالاسلام ويقولون مبدأ العالم نور وانّه نسخ بعضه فاستحال ظلمةً وامّا اهل الصين فعامّتهم الثنويّة إلى كثير ممّن يليهم من التُرك وفيهم المعطّلة الذين يقولون بقدم الأعيان وأنّ العالم لا صانع

لـه ولا مدبّر والهنود أصناف كثيرة وتجمعهم البراهمة والسمنيّة والمعطّلـة الأُخرى يقولون بالتوحيد غير أنّهم يُبطلون الرسالـة ومنهم المهادرزيّـة يزعمون أنّ المبدأ ثـلاثـة اخوة أحدهم مهادرز فـاحتال اخواه فى المكر بـه فعثرت بـه دابّته فسقط ميتًا فسلخا جلده وبسطاه على وجه العالم فصار من جلدتـه هذه الارض ومن عظامه الجبال ومن دمآئـه الأوديـة والأنهار ومن شَعْره الأشجار والنبات هذا مـا بلغنا من مذاهب سُكّان الأرض والقدمآء فى هذا الباب وقد أشرنا إلى فساد مذهبهم ومذهب مَنْ يقول بقدم العالم أو شىء مع الله تعالى بما فيه كفاية وغُنية وهذه الحكايات كلّها ان لم يكن شىء منها زُمرًا أو الغازًا أو تمثيلًا أو روايةً عن كتاب من كتب الله عزّ وجلّ أو رسول من رُسل الله أو بوفـاق ما جآء منهم أو بشهادة العقول قـاطبةً فمردودة غير مقبولة ومحمولة على تمويه واضعها وتزوير مبتدعها وليس فى كثرة التَرْداد والتكرار كثير فائدة ومتى مرّنْتَ نفسك على تحفّظ مسئلة إحداث العالم استغنيتَ عن كثرة الخوض فى الفروع التى بُنِيَتْ على أصل القِدم [f° 28 ٣] لانّـه إذا وَهَى البنآء وضعُف لم يَثْبُت فروعُه ولا قـامت أركانه ،

ذكر مقالات أهل الكتاب فى هذا الباب ، قرأتُ فى كتاب موسوم بشرائع اليهود أنّ جماعةً من علمائهم نهَوْا عن التفحّص عن هذا الباب والشروع فيه وزعموا انّـه لا ينبغى للانسان أن يبحث عمّا يتعجّب منه ويخفى عليه وزعم بعضهم انّ الشىء الذى خلقه الله تعالى فى الابتدآء سبعة عشر شيـًا خلقها الله بلا نُطق ولا حركة ولا فكرة ولا زمان ولا مكان وهى المكان والزمان والريح والهوآء والنار والمآء والارض والظلمة والنور والعرش والسموات ورُوح القـدس والجنّة وجهنم وصُوَر جميع الخلائق والحكمة قـال ومخلـوقـه ذو جهات ستّ وهو محصور بين هذه الجهات التى هى الأمام والخَلْف والعُلو والسفل واليمين والشمال وزعم بعضهم أنّ أوّل ما خلق الله سبعة وعشرون شيـًا فذكر هذه السبعة عشر وأضاف اليها كلام موسى الـذى سمعه وجميع مـا رأتـه الانبيآء والمنّ والسلوى والغمام والعين التى ظهرت لبنى اسرائيـل والشياطين واللباس الـذى ألبس آدم وحوّآء وكلام الجبّار الـذى كلّم بـه بلعام هكذا الحكايـة عنهم والمسطور فى أوّل سِفْر من التورية بالعبرانيّة " برشست بارا ايلوهيم اث هشومائم واث هو اورس وهو اورس هو تو ثوهم

وحوشخ على هي تهوم" يقول أوّل شيء خلقه السمآء والأرض وكانت الأرض جزيرة خاوية مظلمة على الغمر وريح الله يزف على وجه الأرض كذا فسّره المفسّرون فلا أدرى كيف خالفته الحكاية عنهم ضمن التورية ولعلّ ما ذكروه فى بعض أسفارهم لأنّ التورية مشتملة على عدّة كُتُب من كتب الأنبيآء والله اعلم وامّا النصارى فدينهم فى هذا دين اليهود لانّهم يقرءون التورية ويقرّون بما فيها والصابئون محرون فى مذهبهم فأكثر الناس على انّ دينهم بين دين اليهود والنصارى فإن كان كذلك فقولهم قولهم وحكى زرقان أنّ الصابئين يقولون بالنور والظلمة على نحو ما يقوله المانيّة والله اعلم،

ذكر قول أهل الاسلام فى المبادئ وما جآء من الروايات فيها، حدّثنا الحسن ابن هشام ببَلد قال حدّثنى ابرهيم بن عبد الله العَبْسىّ حدّثنا وكيع عن الأعمش عن أبى طبيان عن ابن عباس رضى الله عنه قال أوّل ما خلق الله من شيء القلم قال اكتب فقال اى ربّى وما اكتب قال القَدَر فجرى القلم بما هو كائن من ذلك اليوم الى يوم القيامة قال ثمّ خلق النون فدحا الأرض عليها فارتفع بخار المآء ففتق منه السموات فاضطربت النون

فارت الأرض فأُثبتت بالجبال وان الجبال تتفجر على الأرض الى يوم القيامة وحدّثنا عبد الرحمن بن أحمد المروزىّ بمرو حدّثنا السرّاج محمد بن اسحق حدّثنا قتيبه بن سعد حدّثنا خالد بن عبد الله بن عطآء عن ابى الضحا عن ابن عبّاس رضى اللّه عنه قال أوّل شىء خلق الله تبارك وتعالى القلمُ فقال له اكتب ما يكون الى يوم القيامة ثم خلق نون فكبس عليها الأرض يقول الله تعالى نون والقلم وما يسطرون وحدّثنى محمّد بن سَهْلٍ باسوار حدّثنا ابو بكر بن زيّان حدّثنا دعه عيسى بن حمّاد [f° 28 v°] عن اللَّيْث بن سَعْد عن ابى هانىء عن ابى عبد الرحمن البجلى عن عبد الله بن عمر عن رسول الله صلعم أنّه قال كتب الله تقادِرُ كلّ شىء قبل أن خلق السموات والأرض بخمسين ألف عام وقد اختلفت الروايات عن ابن عبّاس رضى الله عنه فروى عنه اوّل ما خلق الله القلم وروى عنه سعيد بن جُبير أوّل ما خلق الله العرش والكرسىّ وروى أوّل ما خلق الله النور والظلمة وروينا خلاف ذلك كلّه عن الحسن انّه قال اوّل ما خلق من شىء العقلُ ورُوى عنه أوّل ما خلق الله

[1] Note marginale : كذا فى الأصل .

الأرواح وفى رواية ابى الوليد عن ابى عوانه عن ابى بشرٍ عن مجاهد قال بدء الخلق العرش والماء والهواء وخُلقت الأرض من الماء وحدّثنى حاتم بن السندىّ بتكريت حدّثنا احمد بن منصور الرمادىّ عن عبد الرزّاق عن معمر عن الزُهرى عن عُروة عن عائشة رضى اللّه عنها قالت قال رسول الله صلعم خُلقت الملائكة من نور وخُلق الجانُّ من مَارِج من نار وخُلق آدم كما وصف لكم واما حديث حماد بن سلمة عن يعلى بن عطا عن وكيع بن حُرس عن عمّه ابى رزين العقيلى انه قال قلتُ يا رسول الله أين كان ربّنا قبل أن خلق السموات والأرض قال كان فى عماء ما تحته هواء ولا فوقه هواء ثم خلق عرشه على الماء فإنه ان صحّ وصحّ تأويل من تأوّل العماء السحاب والغمام دلّ أن خلق الغمام المذكور فى الخبر والقرآن كان قبل خلق السموات والارض وقد روى انّ النبى صلعم قال كتب الله كتابًا قبل أنْ يخلق الخلق بألفَىْ عام[1] ووضعه على العرش فإن صحّت الرواية دلّ أنّ خلق العرش كان قبل سائر الخلق وفى كتاب ابى حُذَيْفة عن حبير عن الضحّاك عن ابن عبّاس رضى

[1] Interpolation dans le ms. : سبقَتْ رحمتى غضبى.

الله عنه أنّ الله لما أراد أن يخلق الماء خلق من النور ياقوتةً خضراء ووصف فى طولها وعرضها وسمكها ما الله به عليم قال فلحظها الجبّار لحظةً فصارت ماءً يترقرق لا يثبت فى ضحضاح ولا غير ضحضاح يرتعد من مخافة الله ثم خلق الريح فوضع الماء على متن الريح ثم خلق العرش فوضعه على متن الماء فذلك قوله تعالى وكان عرشه على الماء وروى عبد الرزّاق عن معمر عن الأعمش عن ابن حُبير قال سألتُ ابن عبّاس رضى الله عنه عن قوله تعالى وكان عرشه على الماء فعلامَ كان الماء قبل أن يخلق شيئًا قال على متن الريح فإن صحّت الرواية عن الضحّاك دلّ أنّ النون قبل خلق الماء وامّا محمّد بن اسحق فإنّه يقول فى كتابه وهو أوّل كتاب عُمِلَ فى بدء الخلق لقول الله تعالى وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستّة أيّام وكان عرشه على الماء فكان كما وصف نفسه تبارك وتعالى إذْ ليس إلّا الماء عليه العرش ذو الجلال والإكرام والعزّة والسلطان فكان أوّل ما خلق النور والظلمة ميّز بينهما فجعل الظلمة ليلًا أسْوَدَ مظلمًا وجعل النور نهارًا مُضيئًا مبصرًا ثم سمك السموات السبع من دخان الماء حتّى استقلّلْنَ ثم دحا الأرض

وأرساها بالجبال وقدّر فيها الأقوات ثم استوى الى السمآء وهى دخان ، لا يختلف أحد من المسلمين ومَنْ يدين الله بالكتاب والرسالة انّ ما دون الله تعالى مخلوق مُحدَث وإن لم يذكر خلقه وإحداثه وانّما مرادنا أن نعرف أوّل ما خلق الله منه إن كان ذلك ممكنًا منه اختلف الرُواة عن وهب بن منبّه وغيره من منى [f° 29 r°] أهل الكتاب فروى عن عبد الله بن سلام انّه قال خلق الله نورًا وخلق من ذلك النور ظلمةً وخلق من تلك[1] الظلمة نورًا وخلق من ذلك النور مآءً يخلق من ذلك المآء الأشياء كلّها وعن وهب بن منبّه قال وجدت فيما أنزل الله على موسى بن عمران عليه السلم أنّ الله لمّا أراد خَلْق الخلق خلق الروح ثم خلق من الروح الهوآء ثم خلق من الهوآء النور والظلمة ثم خلق من النور المآء ثم خلق النار والريح وكان عرشه على المآء وسمعتُ بعض الشيعة يزعمون أنّ اوّل ما خلق الله نور محمّد وعلىّ ويروون فيه رواية والله اعلم بصحّها وقد ذكرت حكمآء العرب ومن كان يدين الله منهم بدين الانبيآء فى أشعارها وخطبها كيف كان مبدأ الخلق

[1] Ms. ذلك.

فمنه قول عدى بن زيد العبادىّ وكان نصرانيًّا يقرأ الكتب [بسيط]

اسمع حديثًا كما يومًا تجاوبه ... عن ظهر غيب إذا ما سائلٌ سألا

ان كيف أبدى إلهُ الخلق نعمته ... فينا وعرّفنا آياته الأُولا

كانت رياحًا وماءً ذا عُرانية ... وظلمةً لم يدع فتقًا ولا خللا

فأمر الظلمة السوداء فانكشفت ... وعزل الماء عما كان قد شغلا

وبسط الأرض بسطًا ثمّ قدّرها ... تحت السماء سواءً مثل ما فعلا

وجعل الشمس مصيرًا لاخفاء به ... بين النهار وبين الليل قد فضلا

قضى لستّة أيام خلائقه ... وكان آخر شيء صوّر الرجُلا

وقد حكى الفُرس عن علماء دينهم وموبذيهم أوّل ما خلق الله السموات والأرض ثم النبات ثم الانسان،

ذكر تصويب أرجح المذاهب، أقول انّ رأىَ من رَأَى تقديم[1] أحد الأركان على غيره هو مُختلّ واهٍ لأنّهم يختلفون فى الاستحالة والفساد وكيف يصحّ على رأى تاليس الماء وهو عنده مستحيل من الأرض وعلى رأى براقليطس[2] النار وهى مستحيلة عنده

[1] Ms. بقدم. [2] Ms. براطيطس.

من الهوآء وكذلك سائر الأركان أم كيف يجوز عندهم تولّد حيوان أو تركّب نبات من غير اجتماع هذه الأخلاط الأربع فيها لأنّ ما تفرّد بطبع واحد لا يوجد منه غير حركته الطبيعيّة أو من زعم بابتدآء البسائط ثم العناصر المركّبة فإنّه يفحش قوله لأنّ البسائط أعراض لاتقوم بذواتها ولا بُدّ لها من حامل فكيف يصحّ وجودها بلا حامل وكذلك من زعم النور والظلمة لانّهما عرضان لا جسمان والأصحّ على مذهب هولآء ما رأى اثمادقليس من تقدّم الاسطقسات الأربع وفساد هذا ظاهر عند المسلمين بأن الاسطقسات لا تخلو أن تكون أعراضًا فإن كانت أعراضًا فالعرض لا يقوم بنفسه أو يكون أجسامًا وحدُّ الجسم ما ذكرناه واثر الحدث مقارن له أو يكون لا أجسامًا ولا اعراضًا فهذا غير معقول عند المسلمين إلّا البارئ جلّ جلاله فانّه خلاف خلقه من جميع الوجوه وإذا لم تكن [f° 29 v°] اجسامًا ولا أعراضًا عندهم فلا بُدّ أن يكون هو الهيولى الموهوم فى مذهبه وهذا شيء لو كان موهومًا لما جاز وقوع الاختلاف فيه إلّا مِن مُعاند كما لا يجوز وقوع الاختلاف فى المعقول إلّا من معاند مع أن الوهم لا يحصر ما لا حدّ له ولا صفة من

لَوْن أو مقدار أو شئ من الأعراض المحسوسة وجملة هذا القول فى هذا الباب مراعاة اثر الحدث فيما سوى البارئ جلّ جلاله فاذا ثبت ذلك عُلم أن ما كان محدثًا فلا بُدّ له من ابتداء واذا كان لا يقول بحدث العالم إلّا الموحّدون لم يوجد ابتداء ذلك إلّا من جهتهم وهم يختلفون فى الرواية عن علمائهم فى الظاهر ومتّفقون فى المعنى إذا انعموا النظر فامّا اهل الكتاب وما حُكى عنهم فمحتمل غير أنّه لا يجوز القطع به ما لم يصدّقه كتابنا أو خبر نبيّنا صلعم لما وقع فيهم من التحريف والتبديل ولأنّه خلاف ما ذكر فى اوّل التورية فى ابتداء الخلق فالذى يوجبه العقل أن يكون مكان كلّ متمكّن سابق له وان لا يحل حركة إلّا فى جسم ولا يوجد إلّا فى زمان وان لا يصحّ فعل اختيار وتدبير إلّا من حىّ عالم وان لا يحدث شىء إلّا من شىء وانّ الأركان الاربع سابقة للأجسام فمن قال بقدم هذه المذكورات دخل فى جملة المخالفين ونقضت عليه آثار الحدث فيها ومذهبه ومن قال بحدثها فما حاجته الى تقديم ما قدّم منها وقد أقرّ بأنّ الله أحدث الزمان من غير زمان والمكان فى غير مكان والاركان من غير أركان اللهمّ إلّا ان يُعمد فيه شيئًا

من كتب الله فليس يجد فى كتاب أوّل ما خلق ما هو فيقضى على ما خالفه بالردّ والإنكار ولابُدّ لكلّ حادث من غاية ينتهى إليها كقولنا الساعة من اليوم واليوم من الاسبوع والاسبوع من الشهر والشهر من السنة والسنة من الزمان والزمان من الدهر فقد انتهى الى الزمان والزمان غايته وكما نقول فلان من فلان وفلان من فلان كما ترفع مثلًا نسب رسول الله صلعم الى آدم ثم يقال وآدم من تراب فالتراب آخره وكذلك سائر الاشياء الحادثة لابُدّ لها من غاية هذا ما يعاينه ويشاهده فلذلك وضعنا ما روينا عن أهل الكتاب على وجه الاحتمال فقد ذهب بعض أهل الاسلام الى أنّ أوّل ما أحدث الزمن العلوىّ وهو وقت يظهر فيه الفعل ليس السُفلى الذى هو من حركات الفلك ثم المكان الذى هو غير متحيّز ولا متماسك وهو فضاء وبسيط ذاهب خلاء مُحيط بالعالم قال وليس الهواء من الفضاء فى شىء لأنّ الهواء جسم متحيّز ومنتشر وليس الخلاء بمتحيّز ولا محسوس ومعنى قوله التحيّز انّ الخلاء لا يدخل العالم منه شىء الا يتخلله بتّةً والهواء ما بين السماء والأرض ولا يخلو منه شىء والخلاء ما فيه السماء والأرض

والهوآء تم الأجسام بأعراضها كذا رأيت فى بعض كتبهم والله اعلم فاذا سأل سائل عن ابتدآء الخلق فجوابه أنّ ما دون الله مخلوق نِعْمَ سؤالك عن العالم العُلوىّ أم العالم السُفلىّ أم عن الآخرة الموعودة أم عن الدنيا الفانية [f° 30 r°] لأنّ كلّ شىء من هذه الاشيآء ابتدأ منه ابتدآء ونشوٌ فإن قيل هل غير الدنيا والآخرة شىء قيل العرش والكرسىء والملائكة واللوح والقلم وسدرة المنتهى مخلوقة كلّها ولا تعدّ[1] من الدنيا ولا من الآخرة وكذلك الجنّة والنار والصراط والميزان والصُور والأعراف والرحمة والعذاب مخلوقة عند كثير من الأمّة ثمّ من بعدهم من أهل الكتاب ولا يُعدّ من الدنيا ولا من الآخرة فإن قيل فقد قال الله تعالى فللّه الآخرة والأولى ولم يذكر شيئًا غيرهما قيل ولِمَ يذكر الاشيآء غيرهما مع أكثر أهل التفسير يقولون معناه لله الحكم فى الآخرة والأولى وقد قال رسول الله صلعم ما بعد الموت مستعتب ولا بعد الدنيا إلّا الجنّة والنار لانّه لا شىء غيرهما وانّما يصحّ هذا اذا عُرفت الدنيا والآخرة ما هما على انّه لا عتْب

[1] Ms. يعدّ.

على من عدّ ما ذكرناه من أمر الآخرة ولا مضايقة فيه بعد أن اعتقدها كما جاءت به كتب الله وينبغى أن يعلم أنّ كلّا دون الدنيا روحانىّ حيوانىّ خُلق للبقاء والخلود على الأبد لا يجوز عليه الانحلال والدثور بقول الله تعالى وإنَّ الدار الآخرة لهى الحيَوان لو كانوا يعلمون ،

ذكر أوّل ما خُلق فى العالم العلوىّ من الحيوانات يدلّ على أنّ أوّل ما أوجده الله تعالى القلم واللوح على رواية ابى ظبيان عن ابن عبّاس ثم العرش والكرسىّ على رواية مجاهد وقد قال قائلٌ أنّ أوّل ما خُلق الرّوح والعقل على رواية الحسن لأنّ فى رواية ابن عبّاس انه قال للقلم اكتب فقال اى ربِّ وما اكتب والأمر فى الحقيقة والجواب لا يصّح الّا من حىّ عاقل قال ثم الحجب ومنها الغمام والنور والملائكة ثم الرحمة والعذاب يعنى الجنّة والنار والصراط والميزان وغير ذلك ممّا ذُكر وأوّل ما خلق فى العالم السفلىّ من الحيوانات الماء والهواء كما قال مجاهد وخُلقت الأرض من الماء فهذه أركان العالم ثم النور والظلمة ومن الناس من يفرق بين النور العلوى

والنور السفلي بأنّ هذا جسم لطيف وذلك روح خالص مع اختلافهم فى الروح أجسم هو أم غير جسم وسيمرّ بك فى بابه مشروحًا مفسّرًا ان شاء الله عزّوجلّ فاذا سأل سائلٌ مِمَّ خُلق الخلق قيل ان الخلق اجزاء مختلفة فعن أىّ جزء من اجزآء الخلق سؤالك ولن يجاب حتّى يشير الى ما أردنا فإن سأل عن الأرض قيل من زبد الماء كما جاء فى الحديث والخبر وان سأل سائلٌ عن السماء قيل من دخان الماء وان سأل عن الكواكب قيل من ضوء النهار وان سأل عن الأركان المركّبة قيل من البسائط المفردات وان سأل عن البسائط قيل يمكن أنّ يكون خُلقت ممّا خُلق قبلها ويمكن ان يكون خلقت لا من شىء لانّا نرى الله يخلق الشىء من الشىء ويخلق من لا شىء وقد دلّنا على أن لا شىء غير الله تعالى إلّا مخلوق وانّ الله ابتدعه بَدِئًا لا من شىء كما شاء ما لا حاجة الى إعادة القول فيه بقول الله تعالى بديع السموات والأرض وقال الله خلق كلّ دابّة من ماء وقال الله خلقكم من نفس واحدة وقال خلق الانسان من صلصال كالفخار وخلق الجانّ من مادج

من نار مع سائر ما وصفتُ انه خلقه من خلقٍ خَلَقه قبلَه [f° 30 v°] وكذلك يفعل الشيء بسبب ويفعله بلا سبب موجب قال الله تعالى وانزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقًا لكم فأخبر عزّ رجلّ انه جعل سبب اخراج الثمر والنبات إنزال الماء وكذلك جعل سبب كون الانسان النطفة وسائر ما يوجده ويحدثه وقد أوجد أمّهات هذه الاسباب بغير سبب موجب لها بل بقدرته وحكمته وان سأل سائل فيمَ خلق قيل فيمَ سؤالٌ عن المكان ولا مكان الّا وهو مفتقر الى مكان وقد سبقت الدلالة على فساد الحلول بما ليست له نهاية فلو قال القائل أنّ العالم لا فى مكان لكان قولًا لأنّه ليس بأعجب من إقراره بإيجاد الأعيان لا من غير سابقة وقد قيل انّه فى خلاء وهو مكان له وزعم آخرون أن العالم بعضه مكان لبعض وفى كتاب وهب بن منبّه ان السموات والجنّة والنار والدنيا والآخرة والريح والنار كلّها فى جوف الكرسىّ فإن صحّت الرواية كان الكرسىّ مكانًا لهذه الأشياء والله اعلم وأحكم،

وان سأل كيف خلق قيل كيفَ سؤالٌ يقتضى التشبيه فى الجواب وليس نعلم العالم مثلًا غيره فنشبّهه به ولكنّا مشاهدين له عند احداثه ولا فعل الله تعالى بحركة ولا معالجة والكيفيّة منتفية عن فعله كما هى منتفية عنه سبحانه فإن اردتَّ كيف أوجده من عدم فكيف تراه اجسامًا وجواهر حاملة للأعراض قال له كن فكان كما أخبرنا عنه وإن اردتَّ شكلًا وهيئةً لفعله فهذه من حالات الأعراض التى تتعاقب على المخلوقين فإن سأل سائل متى خُلق قيل متى سؤالٌ عن المُدّة والوقت من الزمان والمدّة عندنا من حركات الفلك ومَدَى ما بين الأفعال وقد قامت الدلالة على حدث الفلك ولا يُطلق المسلمون القول بأنّ الله تعالى لم يزل يفعل لانّ ذلك يوجب ازليّة الخلق ويؤدّى الى قول من يرى المعلول مع العلّة حتى يكون بين فعل سابق له الى انّ فِعْل العالم مُدّةً وقد زعم بعض الناس أنّه أحدث زمانًا أوجد فيه العالم كمن قال انّه احدث مكانًا أوجد فيه العالم فقال قومٌ الزمان ليس بشىء وإن سأل سائل لِمَ خلق قيل لِمَ سؤالٌ عن العلّة الموجبة للفعل وفاعل ذلك مضطرّ غير مختار والمضطرّ مقهور مغلوب ولا يجوز ذلك فى

صفة القديم فإن اردتَّ بالعلّة الغرض المقصود فى الخلق فهو ما ذكرناه فى اوّل هذا الفصل انه خلق الخلق لرأفته ورحمته وجوده وقدرته لينفعهم وليأكلوا من رزقه وليتقلّبوا فى نعمته ويستحقّوا شرف الثواب بطاعته ،